



مجلة دراسات تاريخية



ISSN: 9741-2352

EISSN :6723-2600

رحلة التمشروتي النفحة المسكية وقيمتها التاريخية والعلمية

Tamgrouti Journey, En-nefha Elmeskia, and its historical and scientific value

د/ قادة دين

Dr/ Kadda DINE

المركز الجامعي نور البشير، البيض (الجزائر)

eldine.kd@gmail.com

الملخص:

في سياق العلاقة السياسية الثنائية بين الدولة السعدية بالمغرب الأقصى وبين الدولة العثمانية، قام السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي في سنة 997هـ/1589م ببعث سفارة دبلوماسية إلى السلطان العثماني مراد الثالث، كان على رأسها العالم علي بن محمد التمقروتي، بهدف توطيد الصلح والسلام بين الدولتين.

وقد انتقلت تلك السفارة من فاس إلى عاصمة الخلافة العثمانية إسطنبول، سالكة الطريق البحري الذي ينطلق من تطوان ويمر عبر المدن الساحلية لأقطار شمال إفريقيا، وحتى طرابلس ومنها إلى القسطنطينية، ثم العودة عبر نفس الطريق وحتى فاس، وعقب نهاية المهمة ورجوع التمقروتي إلى قريته سنة 1591م، قام بتدوين تفاصيل تلك الرحلة، في كتاب أسماه "النفحة المسكية في السفارة التركية".

فأنتج التمقروتي مصنفًا ينتمي إلى أدب الرحلة، غني بكل ما شاهده من مناظر وعمارة وحوادث وأخبار في المحطات التي مر بها، مما جعله يصبح مصدرا مهما في شتى الأخبار السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، عن تلك الحقبة من تاريخ بلدان المغرب وعاصمة الخلافة العثمانية.

الكلمات الدالة: النفحة المسكية، الرحلة، التمقروتي، المنصور الذهبي، الدولة السعدية

Abstract

In the context of the bilateral political relationship between the Saadian state in Morocco and the Ottoman Empire, the Saadian Sultan Ahmed Al-Mansur Al-Dhahabi sent In 1589, a diplomatic embassy to the Ottoman Sultan Murad III, Led by the scholar Ali bin Muhammad Al-Tamqrouti, In order to consolidate peace between the two states.

That embassy moved from Fez to Istanbul, Through the sea route that starts from Tetouan and passes through the coastal cities of North African countries, to Tripoli and from there to Constantinople, and then back via the same road to Fez, and After his return to his village in 1591, al-Tamqrouti wrote down the details of that trip, in a book he called "En-nefha Elmeskia Fi Elsifara Elturkia".

This book is considered an important source in various political, economic, cultural and social news about that era in the history of the Maghreb countries.

Keywords : *En-nefha Elmeskia, al-Tamqrouti, Al-Mansur Al-Dhahabi, Morocco, Saadians*

مقدمة:

حفل التراث الأدبي الإسلامي ببحر زاخر من التأليف والكتب في شتى الأغراض والأصناف، ومثلت الرحلة إحدى تلك الأغراض الشيقة، التي برع فيها المسلمون إبان توهج ألق حضارتهم، فأنتجوا منها نماذج غاية في الإبداع خلّدها تاريخ البشرية، مثل رحلة ابن بطوطة العظيمة "تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، ورحلة ابن جبیر "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"، ورحلة أبو البقاء البلوي "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، وغيرهم من الرحالة المسلمون، الذين دوّنوا تفاصيل رحلاتهم في مصنفات جميلة، جمعت بين جمال الأدب من خلال السرد القصصي الممتع للعجائب والنوادر والغرائب، وبين منهجية التاريخ عبر توثيق الأخبار وحوادث الأيام ونقل سيرة الأعلام وأحوال الحواضر والبلدان.

وإذا كانت كتب الرحلات في عصر القوة والازدهار الإسلامي إضافة أدبية أكثر منها قيمة تاريخية أو سياسية، نتيجة كثرة المؤلفات ووفرة مصادر الأخبار الأخرى، فإنها في العصر الحديث وخلال العهد العثماني، تمثل كنزاً تاريخياً وعلمياً لا غنى عنه، لما تمثله من مصدر للأخبار التاريخية السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، ولدورها الكبير في عملية التدوين التاريخي اللاحق، ومن تلك الرحلات التي تأخذ أهمية خاصة في هذا المجال، رحلة علي بن محمد التمقروتي "النفحة المسكية في السفارة التركية"، رغم كل ما قيل عنها، نظراً لارتباطها الوثيق بفترة تاريخية حساسة وبحيثيات سياسية مهمة، فمن يكون علي التمقروتي ؟ وما دوافع وتفاصيل رحلته ؟ وأي دور وقيمة تاريخية لهاته الرحلة ؟

فيهدف هذا البحث إلى تقصي ملابسات تلك الرحلة، والتعرف على مؤلفها، والتنقيب عن خلفياتها، والسير مع صاحبها في محطاته التي سلكها، من أجل استخراج كل ما له قيمة تاريخية، ويمثل مادة أولوية في عملية البناء التاريخي، لأحداث تلك الحقبة ودولها، وهذا عبر توظيف المنهج التاريخي، واستقراء الوثيقة الأصلية، "النفحة المسكية"، ومؤلفات أخرى مساعدة تطرقت لتلك الرحلة بالدراسة أو تحدثت عنها أو أخذت منها، وفحص كل ذلك ومقارنته ونقده، بما يخدم أهداف البحث، وهو الحكم على أهمية وفوائد تلك الوثيقة بالنسبة للعملية التاريخية.

1. التعريف بالتمقروتي ورحلته:

1.1 التعريف بالتمقروتي:

هو علي بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن يحيى الجزولي قبيلة، البكري نسباً، الدرعي التمقروتي داراً ومنشأً، كما يثبت هو بنفسه في مصنفه "النفحة المسكية"¹، ولد سنة 941هـ/ 1534م بقرية (تمقروت أو تمجروت)²، وهي مركز عمراني صغير يقع بمنطقة وادي درعة على مسافة 180 كلم جنوب مدينة ورزازات الحالية، وقد كانت هاته المنطقة ورجالها محل اهتمام السلاطين السعديين بحكم انحدرهم منها³.

وصفه صاحب مصنف⁴ "الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة" بـ "إمام المعارف وروضة الأدب والصلاح الناعمة الأفنان والمطارف"⁵، ووصفه كثير من المترجمين بـ "الولي الصالح، المشارك في العلوم"، وقد أخذ عن

جماعة من الأعلام والمشايخ⁶، ورغم أنه لم يحز شهرة بعض أفراد عائلته، لكن ما يتوفر من معلومات يشير إلى أنه نشأ وتربى في بيت علم وصلاح، حيث كان جده علي بن محمد أحد علماء وأخيار منطقة درعة⁷ نال شهرة ومكانة بها، وكان والده الشيخ الولي والعالم أبو عبد الله محمد بن علي الدرعي، أحد علماء بلده وصلاحها، أخذ عن جملة من العلماء ومنهم شيخه في الطريقة عبد العزيز القسنطيني⁸، وقد مارس التدريس بدرعة وتلمذ على يده الكثير⁹.

وكان عمه عبد الله بن علي من أعلام التصوف، رحل إلى تونس ولازم الشيخ عبد العزيز بن خليف القسنطيني وأخذ عنه، وقد توفي ودفن بتونس¹⁰، أما أخوه محمد فكان فقيها وعالما ومخالطا لشؤون السياسة، أمضى الكثير من السنوات في التدريس بزاوية العائلة بقرية تمقروت، وقد اتصل بالسلطان السعدي عبد الله الغالب¹¹ سنة 980 هـ/1580 م، فبعثه في سفارة إلى السلطان العثماني سليم الثاني¹²، فنجح في أدائها، وبعدها استعان به الغالب في تعليم أبنائه الأمراء، فأتى به إلى فاس فقرّبه وعيّنه في إمامة جامع المشور، فتلمذ عليه أبنائه ومنهم أحمد المنصور الذهبي¹³ في شبابه، والذي أخذ عنه الكثير من العلوم وأجازته ونشأت بينهما علاقة واتصال¹⁴.

وبدوره تصدر علي التمقروتي للتدريس في زاوية عائلته، حتى نال مكانة وشهرة، فوصل خبره إلى السلطان أحمد المنصور الذهبي¹⁵، ويبدو أن علاقة أخوه محمد بالسلطين السعديين وتلمذ المنصور عليه في صغره، ساهم في معرفة المنصور به، وتكليفه بمهمة السفارة المعنية إلى عاصمة الخلافة سنة 997 هـ/1589 م¹⁶.

وبعد أن أدى التمقروتي مهمته ورجع إلى المغرب، عاد مرة أخرى إلى مسقط رأسه بقرية تمقروت وإلى مزاولة التدريس والتعليم بزاوية عائلة التمقروتي، وفي آخر أيامه انتقل إلى مراكش، بطلب من المنصور لبعض الشؤون الرسمية على أكثر ترجيح¹⁷، وبها توفي ودفن بروضة القاضي عياض¹⁸ سنة 1003 هـ/1594 م¹⁹.

ويرجح البعض أن سبب تجاهل المؤرخين وأصحاب التراجم له، وعدم إطنابهم في التعريف به وتخصيصه بترجمة تستوعب تفاصيل حياته وتعلمه وشيوخه وتلاميذه مثل أعلام عصره، ليس لتدني مكانته العلمية ولا بسبب خموله ولكن لأنه لم يطل المكوث في حواضر المغرب الكبرى في ذلك الوقت، وعدم مخالطته لكبار علمائها وتفضيله العيش والتدريس في قريته الصغيرة في وادي درعة، وربما لولا تلك الرحلة لمات مغمورا لا يسمع به أحد²⁰.

2.1 دوافع رحلة التمقروتي:

تميزت العلاقة بين السعديين حكام المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر وبداية السابع عشر، وبين العثمانيين بالتوتر الدائم نتيجة مساعي العثمانيين لضم كافة أقطار العالم الإسلامي إلى حوزتهم وحرص السعديين على الاستقلال بالمغرب عن أي سلطة خارجية، بل وسعيهم إلى التوسع على حساب نفوذ العثمانيين بالمغرب الأوسط، فتردت العلاقة بين الطرفين خاصة بعد اغتيال السلطان السعدي محمد الشيخ²¹ على يد العثمانيين سنة 964 هـ/1557 م²².

وفي عهد السلطان عبد الله الغالب خليفة السلطان السعودي محمد الشيخ ساهم لجوء إخوته عبد الملك وأحمد وعبد المؤمن إلى الجزائر في تعقيد العلاقة بين الطرفين، واستمرت العلاقة متوترة حتى تدخل عثمانىو الجزائر سنة 983هـ/1576م بالمغرب وأطاحوا بحكم محمد المتوكل²³ ابن الغالب ونصبوا عبد الملك²⁴ مكانه، والذي قضى في معركة وادي المخازن²⁵ سنة 986هـ/1578م وخلفه أخوه أحمد المنصور في حكم المغرب²⁶.

ومع بدايات عهد المنصور الذهبي، حدث توتر جديد في العلاقة نتيجة بعض الأسباب، مثل رغبة باشا الجزائر في وقتها حسن فنزيانو²⁷ في عزل أحمد المنصور وتولية إسماعيل ابن شقيقه عبد الملك السعودي²⁸، ومثل ذلك الجفاء الذي حصل بين السلطان العثماني مراد الثالث²⁹ وبين المنصور السعودي بسبب طريقة تعامل الأخير مع رسل الخليفة العثماني إليه، فقد أساء استقبال بعثة السلطان مراد بن سليم سنة 987هـ/1579م بقيادة مفتي الجزائر أبو الطيب البسكري³⁰، التي جاءت مهينة بانتصاره على البرتغاليين وبتوليته الحكم، وتثاقل في الإجابة على رسالة الخقان الأعظم³¹، ثم كرّر نفس التصرف سنة 988هـ/1580م، عندما بعث له السلطان العثماني يعرض عليه التحالف ضد الإسبان وتزويجه إحدى بناته، فأصدر السلطان العثماني نتيجة ذلك أوامره إلى القلج علي³² بيلر باي الجزائر بغزو المغرب والإطاحة بحكم أحمد المنصور، ولما بلغ المنصور ذلك عبر بعض القناصل الإنجليز، سارع إلى نهج طريق المسألة والدبلوماسية، فبعث بسفارة إلى الباب العالي، تكونت من القائد أبي العباس أحمد بن ودة والكاتب أبي العباس أحمد بن يحيى الهوذلي³³، بغية المصالحة وتصحيح ما بدر منه، ثم أتبعها بسفارة أخرى ضمت قاضي مراكش أبي القاسم بن علي الشاطبي والقائد عبد الرحمن الشيزلي³⁴.

ومنذ هذا الوقت فتحت صفحة جديدة في العلاقات بين المنصور السعودي وبين العثمانيين، وصار تبادل السفارات تقليدا سنويا، كما ذكر المحجي³⁵ صاحب خلاصة الأثر: "وكان موادعا لسلطين آل عثمان، فيرسل إليهم بالهدايا في كل سنة، وكانوا هم يرسلون إليه المكاتيب والخلع السنية، حتى أن السلطان مراد بن سليم خان، كتب إليه في أثناء مكاتيبه: لك علي العهد أن لا أمد يدي إليك إلا للمصافحة، وإن خاطري لا ينوي لك إلا الخير والمسامحة، ورسله دائما تأتي إلى القسطنطينية من جانب البحر"³⁶.

وفي سنة 997هـ/1589م بعث السلطان مراد بهدية معتبرة وبرسالة إلى السلطان أحمد المنصور يرغب في تجديد عهد المودة والسلام، رغبة منه في التفرغ للجهة الشرقية، فاستقبل المنصور بعثة السلطان العثماني بفاس وأكرمها، وبعث إلى أهل سوس يعلمهم مفاخر بما جاء في رسالة الباب العالي إليه، ثم عزم على وفادة بعثة جديدة إلى السلطان العثماني، توطيدا لأواصر العلاقة الودية الطيبة، ورغبة منه في الفوز بحلف العثمانيين ضد الخطر الإسباني المترص ومن أجل التفرغ لمشاريعه التوسعية في الصحراء وجنوبها، كما يظهر من رسالته لأهل سوس: "ولعل في اجتماع كلمة الإسلام إن شاء الله بهذا الصلح، الذي أن أن ينعقد بين الدولتين، ويبرم حكمه بين المملكتين، عوناً على صرف العناية بحول الله لمجاهدة عدو الدين"³⁷.

فبعث السلطان أحمد المنصور يستدعي علي بن محمد التمفروتي من قريته تمقروت، ليقدم إليه بفاس، فغادر بلده في الفاتح جمادى الأولى سنة 997هـ/الموافق ل18 مارس 1589م، وحلّ بفاس يوم 25 جمادى الأولى 997هـ الموافق ل11 أبريل 1589م، فكلفه رفقة الكاتب محمد بن علي الفشتالي³⁸ والكاتب محمد بن علي بن أبي

القاسم بحمل رسالته وهديته إلى السلطان العثماني، فخرجوا من فاس يوم 20 جمادى الثانية 997هـ/ 06 مايو 1589م³⁹.

وقد اجتمع التمقروتي ورفاقه خلال سفارتهم هاته، وأثناء إقامتهم بإسطنبول، بالسلطان مراد الثالث مرتين، في اليوم الثالث لوصولهم لعاصمة الخلافة، أين استقبلهم بقصره ورحب بهم وقدموا إليه هدايا ورسائل المنصور، وفي اليوم الأخير لمكوّتهم هناك وحين تهيؤا للرحيل، فدخلوا عليه لوداعه والسلام عليه، واستلموا منه أجوبته على كتب السلطان السعدي، ولا يتحدث التمقروتي في كتابه عن دوافع مهمته ولا عما دار بينه وبين السلطان العثماني⁴⁰.

ورغم أن ظاهر تلك المهمة حسب ما وصف هو في رحلته، كان محصورا في تسليم الرسائل إلى السلطان العثماني واستلام أجوبتها منه، لكن هناك بعض الشواهد تشي بأهداف وحيثيات تلك السفارة، أولها: تاريخ السفارات السعدية إلى سلاطين بني عثمان، فقد ناقشت سفارة الشاطبي والشيظي سنة 990هـ/ 1582م، مسألة الخلافة وفضل الأشراف من سلالة آل البيت، وأحقيتهم بالرئاسة، وتوصلت مع العثمانيين إلى الاتفاق على مبدأ استقلالية الدولة السعدية وسيادتها، في مقابل احترام وجود وهيبة وسيادة الدولة العثمانية، ووجوب اتحادهما على كلمة الإسلام⁴¹، وثانها: مناقشة التمقروتي حين وصل لمدينة الجزائر، مسألة الأحقية بالخلافة بين سلاطين آل عثمان والسلاطين السعديين، وأن العثمانيين هم مجرد ممالك وموالي دافع الله بهم عن المسلمين، فتقلدوا الخلافة نيابة وأمانة ليؤدوها لمن هو أحق بها، وهم سلاطين المغرب السعديين حسب⁴²، فيستشف من هذا الكلام أن تلك السفارة لم تخرج عن سياق سعي المنصور لشرعنة ملكه واستدراج اعتراف سلاطين بني عثمان بحقه الشرعي في السلطة وبحق دولته في الوجود، ولذا لم يكتف ببعث رسول موظف من ديوانه، ولكن بعث على رأس السفارة بعالم وفقه هو التمقروتي، يحسن الكلام والجواب مثل ما فعل مع الشاطبي والشيظي من قبل.

وقد وضّحت ورقة أرشيفية كشفت في الفترة المعاصرة، بعض ملابسات تلك السفارة، فقد بعث السلطان العثماني مراد الثالث بسفيرين عثمانيين مع البعثة حين عودتها، كلف أحدهما بإبلاغ السلطان المنصور السعدي خبر الانتصار الكبير الذي أحرزه العثمانيون بقيادة مراد الثالث ضد عباس الصفوي، مما اضطره إلى الرضوخ وتوقيع الصلح معهم، والثاني كلف بمهمة إنذار السلطان أحمد المنصور بتأدية حقوق الطفل إسماعيل بن عبد الملك السعدي، والتي تأخر المنصور في تأديتها لمدة ثلاث سنوات والمقدرة بـ 30 ألف دوكات عن كل سنة⁴³.

3.1 مسار رحلة التمقروتي:

خرج علي التمقروتي ورفاقه بعد تكليفهم بمهمة السفارة من قبل السلطان أحمد المنصور من مدينة فاس يوم السبت 20 جمادى الثانية سنة 997هـ الموافق لـ 6 مايو 1589م، متوجهين إلى تطوان، فمكثوا بها ثلاثة أشهر منتظرين مجيء السفن الجزائرية التي تقلهم في رحلتهم نحو إسطنبول، وفي الفاتح من شوال سنة 997هـ/ 13 أوت 1589م ركبوا البحر، سالكين الخط البحري المعروف في وقتها، والذي يمر عبر مدن المغرب الإسلامي الساحلية⁴⁴.

رست سفينتهم بعد أيام بترغة وهو ميناء يقع على مسافة ستين كلم شرق تطوان⁴⁵، ثم مرت بحجر بادس وبعض الجزر الصغيرة ورست بهنين، وهو أول ميناء ببلاد الجزائر، ثم أبحرت مارة على مقربة من وهران ومستغانم وتنس ورست في شرشال، ووصلت إلى ميناء مدينة الجزائر يوم 10 شوال 997هـ/ 22 أوت 1589م⁴⁶. مكثت سفينة التمقروتي عشرون يوما بمدينة الجزائر ثم أبحرت لترسو بميناء دلس، ومنه أبحرت إلى ميناء بجاية، لتغادرها يوم 03 ذي القعدة 997هـ/ 13 سبتمبر 1589م، وتمر بموانئ جيجل والقل وتصل إلى مدينة عنابة، فمكثت بها يومين ثم ارتحلت نحو بنزرت، ومنها عرجت على كل من تونس ورأس أدار والقلبية وسوسة والمنستير ثم المهديّة فقابس فجربة، ولتصل يوم الجمعة 26 ذي القعدة 997هـ/ 06 أكتوبر 1589م إلى مدينة طرابلس، حيث ستمكث البعثة بها مدة شهر واثنى عشر يوما، وترتحل منها نحو مدينة إسطنبول يوم السبت 09 محرم 998هـ/ 18 نوفمبر 1589م⁴⁷.

أقام التمقروتي ورفقته مدة ثمانية أشهر في مدينة إسطنبول، ثم غادروها يوم 07 شعبان 998هـ/ 11 جوان 1590م، متوجهين صوب طرابلس، فوصلوها يوم 06 رمضان 998هـ/ 09 جويلية 1590م، ثم ارتحلوا منها في طريق عودتهم مارين بمدن جربة وصفاقس والمنستير وسوسة وبنزرت، ومنها إلى عنابة ثم بجاية وصولا إلى مدينة الجزائر يوم السبت 08 ذي القعدة 998هـ/ 08 سبتمبر 1590م، فأقاموا حوالي الشهرين بمدينة الجزائر، ثم خرجوا منها يوم 07 محرم 999هـ/ 05 نوفمبر 1590م، فرسوا بمدينة هنين ومنها عادوا إلى تطوان يوم 11 محرم 999هـ/ 09 نوفمبر 1590م، فأقاموا بها حتى يوم 01 صفر 999هـ/ 29 نوفمبر 1590م، أين ارتحلوا صوب مدينة مراكش فوصلوها يوم 10 ربيع الثاني سنة 999هـ/ 05 فبراير 1591م، فبقي التمقروتي في ضيافة السلطان أحمد المنصور الذهبي حتى أواخر جمادى الأولى 999هـ/ أواخر مارس 1591م، ثم ارتحل منها إلى قريته تمقروت فوصلها يوم 01 جمادى الثانية سنة 999هـ/ 27 مارس 1591م⁴⁸.

4.1 تدوين رحلة التمقروتي "النفحة المسكية في السفارة التركية":

تجمع أغلب المصادر التي تطرقت إلى كتاب "النفحة المسكية"، على أن علي بن محمد التمقروتي قد كتبه بعد عودته من مهمته إلى قريته تمقروت بوادي درعة⁴⁹، وأخذا بالاعتبار تاريخ عودته إليها في الفاتح من جمادى الثانية سنة 999هـ/ 27 مارس 1591م، وتاريخ وفاته بمراكش في سنة 1003 هـ/ 1594م، فإن هذا الكتاب قد ألّف في هاته الثلاث سنوات، اعتمادا على ذاكرة الكاتب أو على تدوينات كان قد خطها إبان رحلته⁵⁰.

ويذهب دو كاستري⁵¹ مترجم الكتاب إلى اللغة الفرنسية، أن التمقروتي قام بتحرير الكتاب بطلب من السلطان أحمد المنصور الذهبي⁵²، ويسانده في هذا الطرح صاحب كتاب "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، كراتشكوفسكي⁵³، اعتمادا على ما ساقه التمقروتي في مصنفه من مدح للمنصور وتمجيد لمنجزات السعديين، استجداء لرضاه⁵⁴، وهناك رأي مخالف يستبعد ذلك، بالنظر إلى طبيعة السلطة السياسية بالمغرب في ذلك الوقت، وغياب تقاليد التوثيق وتدوين القوانين والمهمّات والركون إلى العمل الشفهي، وهو ما يظهر في اندهاش التمقروتي نفسه، من طريقة عمل الإدارة العثمانية بإسطنبول، وضبط شؤون الدولة بقوانين وضوابط مكتوبة في سجلات معيّنة، يعودون إليها في تسيير أمور السلطة من دون الحاجة إلى العودة إلى السلطان كل مرة⁵⁵.

ويدعم الرأي الثاني أن التمرقوتي لم يخصص كتابه هذا للحديث عن مهمته السياسية لدى السلطان العثماني بأمر السلطان السعدي المنصور، ومَرَّ عليها مرور الكرام في بضعة أسطر، وأعطى لكتابه طابع كتب الرحلات، بأسلوب أدبي، تحضر فيه روح المؤرخ والجغرافي والفقيه والشاعر الأديب، وخصوصاً مع استشهاده بمصنفات من سبقه من الرحالة والجغرافيين والفقهاء التي يحفظها، مثل: "تاج المفرق" لأبي البقاء البلوي⁵⁶ و"العقد الفريد" لابن عبد ربه⁵⁷ وكتاب "تحفة النظّار" لابن بطوطة⁵⁸ ومصنف البكري⁵⁹ "المسالك والممالك" و"ترتيب المدارك وتقريب المسالك" للقاضي عياض⁶⁰، فيُظهر هذا أن الكتاب كان اجتهاداً علمياً شخصياً مدفوعاً بروح العالم المثقف المطلع المدرك لأهمية تدوين الرحلة.

2. القيمة العلمية والتاريخية لكتاب النفحة المسكية:

1.2 القيمة التاريخية السياسية:

يقدم كتاب "النفحة المسكية" للتمرقوتي، مجموعة من المعلومات السياسية التاريخية، التي استخدمها عدد من المؤرخين منذ تلك الفترة، فبداية الكتاب في حد ذاته عبارة عن قرينة تاريخية عن سياق سياسي معيّن، وتوثيق لحادثة سياسية، وهي السفارة التي بعث بها السلطان المغربي أحمد المنصور إلى السلطان العثماني مراد الثالث، في إطار جهود رَأب الصدع بين الدولتين، وقد استعان جل المؤرخين الذين تناولوا تاريخ الدولة السعدية، وتاريخ العلاقات بين السعديين وبين العثمانيين بكتاب "النفحة المسكية"، وأشاروا إلى هذه الرحلة، وبحثوا في حيثياتها وأهدافها ونتائجها⁶¹.

كما أن الكتاب يحتوي على مجموعة أخبار ومعلومات عن الشؤون السياسية من تلك الفترة، سواء ما تعلّق بالمغرب، مثل ذكره، لما حل على المنصور بفاس، وجود سفارة عثمانية بها⁶²، ومثل تخصيصه الدعاء والتمجيد في ديباجة كتابه لولي عهد المنصور، المدعو "محمد الشيخ"، وذلك رغبة في نيل رضا والده أحمد المنصور لعلمه برغبته في تثبيت منصبه وحكمه من بعده بين إخوته، وهي المعلومة التي تداولتها كثير من كتب التاريخ⁶³، وأيضاً مثل ما أورده عن عزم السلطان أحمد المنصور الذهبي غزو بلاد السودان، وعن أطماعه التوسعية⁶⁴.

وحديثه عن الصراع البحري الذي كان دائراً بين بحارة الجزائر وبين الأوربيين، في الموضع الأول حين وصلوا إلى تطوان للمغادرة، أين كانوا على موعد مع سفينة "الرايس أنروط مامي"⁶⁵، لكنها غادرت قبل وصولهم بليلة واحدة، ولما عاد بها رايسها بعد ثلاثة أشهر أعلمهم أنه غادر تطوان بعد أن تحركت صوبه سفن أوروبية من سبّعة ولا وجود لتحصينات بميناء تطوان تحميه منهم، وثانياً حين تحدث عن مروره برأس أدار بتونس، وخطر السفن المسيحية التي تكمن فيه للقرصنة، لقربه من مالطا وصقلية، وإيراده المثال الذي يتداوله البحارة التونسيون عنه: "من جاز رأس أدار يبرئ الفدية في الدار"، وثالثاً ما أورده من قصة وقوع السفينتين اللتين قدما فيهما هو ورفاقه من إسطنبول، في يد النصاري عقب رحيلها عن الجزائر، بعد تمرد من كان عليهما من الأسرى والعلوج والبحارة المسيحيين، وقتلهم الرياس واختطاف السفينتين بما عليهما من الناس والأموال الكثيرة⁶⁶.

ويقدم التمقروتي معلومات مهمة عن ثورة نشبت في ليبيا سنة 997هـ/1589م، ضد الحكم العثماني⁶⁷، فحين وصلت سفينتهم في رحلة الذهاب إلى مدينة طرابلس، وجدوا مينائها يعج بنحو ستين سفينة قدمت من إسطنبول تحت قيادة الباشا قائد الأسطول العثماني، وذلك لأن قائم قام في بلاد طرابلس كما وصف التمقروتي، ضد جور الترك وفسادهم وقمعهم لأهل البلاد، فاجتمعت عليه العرب واستولى على كل مناطق وأقاليم إيالة طرابلس ما عدا المدينة، فحاصرها وشن عليها الغارات وقتل الكثير من الموالين للأتراك بطرابلس، وهابته القبائل ودفعت إليه الجباية، فخرج إليه جيش إسطنبول عبر البحر وسانده الأسطول الجزائري، الذي رافق سفينة التمقروتي في ذهابها إلى طرابلس، وكذلك جيش تونس الذي قدم عبر البر، وانتهت تلك الثورة بخلاف بين الثوار وقتل قائد الثورة وسلخ جلده وبعثه إلى إسطنبول⁶⁸.

وهذه المعلومات توافق ما جاء في المصادر التي أرخت لتاريخ طرابلس في العهد العثماني، عن ثورة "يحيى الجبالي" أحد زعماء قبائل جبل ليبيا، والذي استغل انشغال الباب العالي بحرب فارس وضعف حكومة طرابلس العثمانية المحلية، فحشد قبائل ترهونة وغريان وبني وليد ومصراتة وتاورغاء، وأعلن الثورة على العثمانيين سنة 993هـ/1585م، وسيطر على أقاليم ليبيا وحاصر طرابلس، ولكنه قُتل من قبل أحد أتباعه يدعى "نوير"، فخلفه قائد آخر يدعى "ولّي"، في قيادة حصار طرابلس، ولكن وصول الأسطول العثماني نجح في فك الحصار وفي هزيمة المتمردين، وتم القبض على "ولّي" فقتل وسلخ جلده وبعث إلى إسطنبول⁶⁹.

ويورد التمقروتي في موضع من كتابه معلومات عن فتح تونس وضمها للخلافة العثمانية سنة 982هـ/1574م، وعن الأساطيل التي خرجت لذلك من إسطنبول ومن الجزائر وليبيا وضمت 450 سفينة ومائة ألف مقاتل، كما يتعرض لسياسة العثمانيين في إيالات شمال إفريقيا، فيصف تصرفاتهم بالجور والفساد، التي تدفع إل الثورة والتمرد "إلى غير ذلك من الذل والإهانة التي هم فيها معهم، هكذا أهل إفريقيا كلهم معهم، فأوجب ذلك استماعهم لكل ناعق"، ويتحدث عن اشتياق وحنين سكان إيالات تونس ومصر العثمانية لحكم شرفاء المغرب الأقصى السعديين، ورغبتهم في الرحيل إلى المغرب طمعا في العدل والرفق⁷⁰.

2.2 القيمة التاريخية الجغرافية:

وعلى غرار كتب الرحلات، يزخر كتاب التمقروتي بتفاصيل جغرافية مهمة عن المدن والموانئ والأماكن التي مرّ بها، فمنذ انطلاقته من تطوان وهو يقدم وصفا لمواضع توقفه أو مروره، مستعينا ومستشهدا بما قاله الرّحالة السابقون، الذين خلّدوا رحلاتهم مثل ابن بطوطة وأبو البقاء البلوي والبكري، خاصة عن الأماكن التي مرّ عليها ولم يستطع مشاهدتها رأي العين، وكأنه يستعيد أمجادهم ويسير على طريقهم⁷¹.

فيصف هنين بأنها بلدة صارت في هذا الزمن خربة، لم يبق منها إلا مسجدها وسورها الذي يحيط بعدد من أشجار التين، ويصف تنس بأنها حصن بناه الأندلسيون، وشرشال بليدة حصينة كثيرة العمارة والزرع والفواكه، ويقول دلس حصن منيع تعرض للتخريب عبر الزمن ولم يبق من بنائه إلا القليل، ويورد أن بجاية مدينة عظيمة لها مرسى حصين في خليج عظيم يمنع الرياح، وأنها تعرضت للتخريب على يد النصاري،

ويستحضر شواهد من كلام ابن عبد ربه والبلوي في وصف بجاية، ثم يتحدث عن القل وعنابة وبنزرت ويصف موانئهم⁷².

ويتحدث عن تونس فيذكر أنها مدينة عظيمة أهلة بالسكان، بها حركة اقتصادية وتجارية نشيطة وأسواق مزدهرة، وتتوفر بها مساجد كبيرة وعامرة بذكر الله، ويُفصّل في وصف تحصيناتها ومينائها وفي وصف جامعها العظيم الزيتونة وأسلوب بنائه، وبعدها يصف المنستير والمهدية و صفاقس وقابس وجربة، مستعينا بكلام القاضي عياض وابن بطوطة عنهم، ثم ينتقل إلى وصف طرابلس بعد أن رست سفنهم بمينائها فيذكر أنها مدينة تقع في سهل لّين مستوي شبيه بأرض الصحراء، ذات نخل وفواكه، كانت لها أسوار حصينة، لكنها ضعفت من كثرة الحروب والفتن، ويصف مينائها قائلا: "ومرسى طرابلس لا يمنع إلا من الريح الغربية، تُكسر فيه السفن وتفسد كثيرا"⁷³.

ويطنب التيمقوتي في وصف القسطنطينية، فيذكر أنها مدينة من أعظم وأشهر مدن الدنيا، واسعة المساحة شديدة التحصين تحيط بها الأسوار، كثيرة الأبواب والمساجد والجوامع والأسواق والحمّامات والفنادق، كما يبدي اندهاشا وإعجابا بمرساها الكبير، ويكثر من ذكر تفاصيله، فهو مرسى واسع جدا داخل في البر يتوسط عمارة المدينة، ولا يوجد نظير له في الدنيا في سعته ومنعته من الرياح، حتى أن مياهه تبقى هادئة ولو اضطرب البحر كله، وتعمه سفن كالنمل من كل حجم وصنف، وعلى يمين هذا المرسى تقع مدينة إسطنبول وعلى يساره تقع مدينة "غلطة"، وهي مدينة صغيرة محاطة بأسوار، وخارج أسوارها أبنية مقامة على البحر، أقامها أهلها على الحجارة المنصوبة أو الأعواد المغروزة في المياه، وأخرى متراسة تصعد بتدرج مع سفح البر المحاذي للبحر⁷⁴.

ويُطنب التيمقوتي في وصف مساجد القسطنطينية، بداية بمسجد آية صوفيا، الذي يعتبره من أعجب وأعظم أبنية الدنيا، حيث يستحيل وصفه وإدراك جماله وشكله على من لم يشاهده، فيتحدث عن تاريخ بنائه وعن قبته العظيمة وعن مآذنه وزخرفته ونقوشه وقناديله وأفرشته، كما يتطرق لوصف أزقة المدينة المفروشة بالحجر ولطرقها الواسعة ولدورها وأسلوب بنائها⁷⁵.

ويُفرد التيمقوتي وصفا لمدينة الجزائر بعد وصوله إليها عائدا من سفارته بالقسطنطينية، يعتبر مرجعا تاريخيا مهما عن تلك الفترة، عاد إليه الكثير من المؤرخين الذين كتبوا عن الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية بالمدينة خلال العهد العثماني وخلال نهاية القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، فيذكر أنها كانت عامرة كثيرة الجند، شديدة التحصين، ميناؤها عامر بالسفن، ورياسها متصفين بالشجاعة والقوة والتفوق البحري، يمارسون الغزو وتصل سفنهم إلى سواحل أوروبا ويقهرون ويُذلّون الأوروبيين في بلادهم، فيتفوقون بذلك حتى على رياس القسطنطينية ويثيرون الهيبة والرعب في قلوب الأعداء أكثر منهم⁷⁶.

ونتيجة ما يوفره كتاب "النفحة المسكية" من معلومات الرحلات، عن جغرافيا المدن والمراسي والطرق والأبنية والأسواق والمساجد، فقد كان ملجأ العديد من المؤرخين ووظفه غير واحد في وصف أحوال مدن المغرب الإسلامي الساحلية والقسطنطينية، ومعيشة السكان بهم في العهد العثماني، ومن أولئك المؤرخين، "مولاي

بلحميسي" في كتابه "الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني"، حيث أفرد فصلا عن رحلة التيمقروتي بعنوان "النفحة المسكية، الرحلة إلى المشرق، العودة منه"⁷⁷، كما أن المستشرق الروسي "إغناطيوس كراتشكوفسكي"، قد صنّفه كأحد المراجع الجغرافية عن المرحلة والمنطقة في مؤلفه "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"⁷⁸.

3.2 القيمة التاريخية الاقتصادية:

ولا يخلو مصنف التيمقروتي من المعلومات الاقتصادية، ففي كل مدينة حل بها أو ارتحل منها، يعطي نبذة عن معيشتها وزرعها وأسواقها وحركيتها التجارية، فذكر أن مدينة الجزائر عامرة بالأسواق، وأضاف قائلاً: "فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد إفريقية وأعمر وأكثر تجارا وفضلا وأنفذ أسواقا وأوجد سلعة ومتاعا، حتى أنهم يسمونها إسطنبول الصغرى"، وعن عناية قال: "ومنها ترفع السفن السمن الكثير إلى قسنطينة"⁷⁹. وذكر أن تونس دار تجارة وفضل، تنتشر فيها الأسواق العامرة المفيدة، مما يشير إلى ازدهار اقتصادها وتجارها، بالرغم الفتن والحروب التي حدثت فيها قبل سنوات قليلة من زيارة التيمقروتي لها، ووصف جزيرة جربة ومعيشتة سكانها وأنها واسعة ذات نخل وفاكهة كثيرة ومتنوعة، وبها الزيتون والحوامض، وبها عمارة كثيرة حسنة، فهي بذلك أحسن بلاد إفريقية في هذه الفترة، وذكر أن طرابلس واسعة الأقطار منبسطة الأرض، يكثر في قراها النخيل والفواكه⁸⁰.

وبالنسبة لإسطنبول التي كانت عاصمة الدولة العثمانية وأكبر حواضر العالم الإسلامي في ذلك الوقت، فقد ذكر أن أسواقها لا تحصى ولا تعد، يتوفر فيها كل شيء من متاع الدنيا، بما يكفي أهل الأرض ويفضل، وأنها تحوي من البشر والصنّاع والأموال والتجار والسلع والدكاكين ما يثير العجب من كثرته، وما يُعجز عن إحصائه والإحاطة به، ولا توجد سلعة حتى الحقيمة منها، إلا وجدت لها أسواق عديدة، وذكر أن حريقا سبق وصولهم إلى المدينة وأتى على بقعة صغيرة منها فقط، أحصى فيه احتراق أكثر من 15 ألف دكان و22 ألف من الدور والخانات والقيساريات⁸¹.

وتحدث التيمقروتي عما شاهده من صناعة السفن في ناحية غلطة بإسطنبول، وكيف يداوم أهلها على صناعة السفن والمراكب في بيوت كثيرة مصطفة على ساحل البحر، حيث يخصص كل بيت لصناعة مركب واحد يسعه، ووراءه بيت آخر يجمع فيه ما يحتاج إليه المركب من الحبال والآلات، وحين يتم الانتهاء من المركب يدفع في الماء، ويبدأ في مركب آخر⁸².

4.2 القيمة التاريخية العلمية والثقافية:

أما بالنسبة للأخبار الثقافية والعلمية والأدبية، فكتاب التيمقروتي مرجع مفيد، ومصنف ثري وغني، يوفر معلومات هامة عن أحوال البلاد، التي زارها، ثقافيا وأدبيا، من خلال ذكر الأولياء والصالحين والعلماء بكل قطر ومدينة حل بها، وعبر الحديث عن الكتب والتصانيف والمدارس ووضعية العلماء، وكذلك من خلال القصائد التي نظمها على طول الرحلة ووثّقها في كتابه ومن نقاشاته مع رفيق رحلته الفشتالي، أو من خلال ما أورده من مقتطفات من مصنفات من سبقوه مثل ابن عبد ربه وابن بطوطة والبلوي⁸³.

فقد ذكر التمرقوتي لما وصل بجاية أنها كانت دار علم ومعقل للعلماء والصالحين، ومنهم العالم والولي الصالح أبو مدين شعيب⁸⁴، الذي كان يقيم بها قبل أن يستدعيه السلطان الموحي يعقوب المنصور⁸⁵، فانتقل منها إلى تلمسان أين توفي ودفن، وذكر من أعلام بجاية الشيخ أبو محمد عبد الحق الأزدي الإشبيلي المعروف بابن الخراط⁸⁶ صاحب مصنف "العاقبة"، وفي عناية زار قبر الولي الصالح أبو عبد الملك مروان بن القطان⁸⁷، وسرد ترجمته من مدارك القاضي عياض، وفي تونس زار التمرقوتي قبر الولي الصالح عبد العزيز بن خليف القسنطيني، وذكر أنه شيخ أسلافه، ويقصد هنا أبوه وعمه، وزار قبر عمه عبد الله بن علي دفين تونس، وزار قبور مجموعة من العلماء الصالحين مثل: ابن عرفة⁸⁸ وابن عبد السلام⁸⁹ وأبو العزائم ماضي⁹⁰ وفتح الله العجمي⁹¹ والقلشاني⁹² وسيدي محرز⁹³، كما زار جامع الزيتونة ووصف هيئته وبعض علمائه وخطبائه، ونقل نصوصا لابن عبد ربه والبكري والبلوي عن تونس، احتوت على ترجمات لعدد من علمائها وأعلامها⁹⁴.

ووصف مدينة المنستير حين مرّ عليها بأنها كانت معقلا للعلماء والطلبة، ولها زاوية منعزلة لطلبة العلم على شكل مدرسة، لها مبنى مئمن مرتفع به مساجد للصلاة وغرف للطلبة ومخازن كثيرة، وكانت في ما سبق مأوى للعلماء ومقصدا لطلبة العلم، ولها أحباس كثيرة في بلدان المغرب والأندلس، تدر عليها غلة كبيرة تصرف على طلبة العلم، لكنها زالت وخربت زمن مرور التمرقوتي، ونقل عن القاضي عياض ترجمة لعدد من أعلامها وصلاحيها، وفي مدينة صفاقس تذكر الإمام أبي الحسن اللخمي⁹⁵، دفين المدينة وقدم ترجمة له⁹⁶.

ولم يتحدث عن واقع العلم وطلبه بطرابلس نتيجة تزامن نزوله بها بنهاية تلك الثورة والفتنة التي اضطرت بسببها أحوال الناس، وعم الخوف والهلع لسنوات، ونغصت معها المعيشة وغاب الأمن والاطمئنان، مما يحول دون مباشرة الناس لطلب العلم والسعي في سبيله، ولكن رغم ذلك فقد حرص على لقاء أحد علمائها وصلاحيها وتقديم ترجمة مختصرة له، وهو فقيه طرابلس وخطيبها أبا عبد الله المكّي⁹⁷، وقد زاره في مسجده وسمع منه، وحفظ عنه قصيدة نونية في ذم الدنيا⁹⁸.

وفي مدينة إسطنبول التي أطال الحديث عنها وأطنب في وصفها، أفرد كثيرا من الكلام عن العلم والعلماء والمساجد، فزيادة على وصفه الدقيق لجامع آيا صوفيا، فقد وصف جامع السليمانية وقبر الصحابي أبي أيوب الأنصاري، وإجلال السلاطين والناس له هناك، وقد زاره وقدم ترجمة له، كما وصف أحوال خطباء المدينة، الذين يخطبون في الناس بخطب قصيرة فصيحة وبمواعظ بليغة، ويبالغون في الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام، ويرفقون ذلك بطقس خاص تعظيما وإجلالا، وقد التقى التمرقوتي واجتمع بعدد من علماء المدينة، وأكثرهم الأحناف كما ذكر، وقليل منهم الشافعيون القادمون من مصر، أما مذهب الإمام مالك فلا وجود له بالقسنطينية، وكتبه إذا وصلت للبلاد تباع بأرخص الأثمان، وذكر صاحب النفحة أن أهل إسطنبول جميعهم من الأحناف، وحتى من يرد عليها من علماء باقي المذاهب يترك مذهبه ويتحول إلى مذهب أبي حنيفة طلبا للمعيشة والجاه⁹⁹.

وأورد التمرقوتي في تفصيل الحياة العلمية بإسطنبول، أن الفقهاء والعلماء بها يُدرسون الناس الفقه والتفسير والنحو والتصريف والبيان والبدیع وعلم الكلام، ومصدرهم في النحو "كافية" ابن الحاجب¹⁰⁰، وأما

الكتب بإسطنبول فهي كثيرة بحيث لا تعد ولا تحصى ولا ينظر لها نهاية، تمتلئ بها الخزائن والأسواق، وتجلب إلى المدينة من كل بلد، وقد اشترى التمرقوتي عددا من الكتب كما سمع عن عدد من العلماء، وأخذ عنهم وربما أجازوه بخط أيديهم كما يفهم من كلامه¹⁰¹.

وعن مدينة الجزائر قال التمرقوتي أن مسجدها الجامع واسع، وله إمام مالكي، ويوجد علاوة عليه مسجدان يخطب فيهما، أحدهما للترك إمامه حنفي، وطلبة العلم بها لا بأس بهم لكنهم مقبلون على الدنيا مفتتنون بها، والكتب فيها أكثر من أي مدينة إفريقية، وتتواجد فيها كتب الأندلس بشكل كبير، وبها قبر الولي الصالح عبد الرحمن الثعالبي¹⁰²، وقبر الولي الصالح سيدي أحمد الجزيري¹⁰³، وغيرهم من الصالحين، الذين زارهم التمرقوتي تبركا¹⁰⁴.

وإضافة لكل هذا فكتاب "النفحة المسكية" للتمرقوتي، يحوي الكثير من المعلومات العلمية، سواء تلك التي أوردها هو بنفسه، أو نقلها عن مصادر سابقة اعتمد عليها، فيجد فيه الباحث في شؤون الحياة العلمية والثقافية في حواضر شمال أفريقيا أو عاصمة العثمانيين في القرن العاشر الهجري وما سبقه، حاجته وغايته، كما أن كتاب التمرقوتي يفيض بعدد كبير من القصائد الشعرية، بعضها نقلها الرجل مما يحفظ من عيون الشعر العربي حسب الموقف، وبعضها من نظمه، وصفها هو نفسه بالأبيات الركيكة التي سمح بها الخاطر الكليل والقلب العليل¹⁰⁵، ورأى فيها دوكاستري مجرد إضافة زائدة لمئات الأبيات الشعرية التي لا يربطها في أغلب الأحيان أي رباط بمحتويات الكتاب¹⁰⁶.

5.2 القيمة الاجتماعية:

ويحتوي مصنف التمرقوتي على بعض اللمحات التي تعطي فكرة عن الأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدة في المغرب والمشرق في تلك الحقبة، ففي إسطنبول لاحظ أن اليهود والنصارى مختلطون بالمسلمين، ولاحظ أن البرد يغمرها وأهلها يعتمدون خلل الشتاء على النار والتدفئة ليلا ونهارا، وأنهم يفرشون الفرش الرفيعة في بيوتهم ويأكلون الأنواع الكثيرة من الأطعمة الشهية والأشربة الحلوة المطيبة بأنواع الطيب، يصنعون الثياب الجيدة الفارهة من جلود الحيوانات وأوبارها، وأنهم حريصون على الدنيا وجمع الأموال، زاهدون في الزواج بالحرائر، مجدون في امتلاك السريات من بنات الروم، وقد سجل التمرقوتي أن إسطنبول تعج بالممالك جراء السبي من النساء والغلمان، من الروم والشركس والصقالبة والمجوس، وأن العثمانيين يفضلون تبني الأبناء وتعيين الجند منهم على العنصر التركي¹⁰⁷.

وقد وصف التمرقوتي قصور السلطان العثماني وحياته، فقال أنه متفرغ لراحة عظيمة ويعيش في دعة، متفرغ للهو داخل قصره بين حراسه ونسائه وغلمانه، ويجلب إليه خدمه أناس صغار القامة ليرقصوا في حضرته ويضحكونه بتصرفاتهم والأعبيهم، وله قصور تطل على البحر تسمى "السراي"، يخرج منها إلى سفنه الخاصة ليتفصح في البحر أو يراقب أساطيله، وتطلق بقية السفن مدافعها إذا مرت به أو شاهده، ورغم ذلك تكن له العامة محبة كبيرة، ويحرص البسطاء والمساكين على الدعاء له بصدق في كل وقت¹⁰⁸.

وقدّم التمقروتي أيضا وصفا دقيقا لمحلة السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، رجع إليها الكثير ممن كتبوا عن منجزات الدولة السعدية، فذكر أنها بيضاء كسقط الثلج، مصطفى كبيوت الشطرنج، وقصر السلطان وسطها من عود مسمر بمسامير وحلق ومخاطيف وصفائح فضية عظيمة، يحيط به سور من سرادق من الكتان به أبواب يدخل منها عبر دهاليز وتعاريج، وبداخله قباب ملونة حمراء وسوداء وخضراء وبيضاء كأنها أزهار الأرض، فكان تلك المحلة مدينة قائمة تنتقل بانتقال السلطان، لم يعرفها الملوك من قبل¹⁰⁹.

وهناك طقس اجتماعي آخر أقدم التمقروتي على وصفه ونقل تفاصيله التي شاهدها، وهو احتفال المنصور الذهبي بالمولد النبوي الشريف، حيث تجري استعدادات كبيرة تحضيراً له، فتتمق القصور وتزوّق وتزيّن غاية الزينة بالأسفار والأفرشة والتحف والمناضد والشموع الجميلة الموقدة، التي يصنعها عمال مهرة خصيصاً لهذا اليوم، ويحتشد الأعيان والوجهاء والعلماء والجند في قصر السلطان فيجلس هو في صدارة ذلك المجلس، والجميع يرتدون أحسن وأجمل الثياب، ثم يؤذن للعامّة فيدخلون للقصر وتوزع أشهى وألذ الأطعمة والفواكه والمشروبات، التي تحمل في الأواني التركية والهندية، وبعد ذلك تنظم حفلات إنشاد في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وبعده تنشد القصائد في مدح المنصور والسلاطين السعديين، وبعد المولد حضر التمقروتي عيد الفطر مع المنصور فيذكر طريقة خروجه صبيحة العيد من قصره إلى المصلى وسط جنوده، والناس مصطفى ترافق موكبه وتهلل له، متسابقة للقائه، فيصلي ويستمع للخطبة، ثم يركب حصانه وسط صفوف جنوده والطبول تضرب فيأخذ البيعة من الحضور، ثم يعود في نظام إلى قصره¹¹⁰.

وهذه الملاحظات الاجتماعية التي أوردها التمقروتي جعلت كتابه مصدراً للمؤرخين الذين جاؤوا بعده، فنقل عنه واحد مثل محمد الصغير الإفرائي، في كتبه "نزهة الحادي"، التفاصيل التي ذكرها بخصوص محلة السلطان أحمد المنصور وهيبتها وعظمتها، وكذلك بخصوص طقوس احتفالاته بالمولد النبوي الشريف وما يتخللها¹¹¹.

3. خاتمة:

كتاب "النفحة المسكية في السفارة التركية" هو مصنف ينتمي إل أدب الرحلات، ألفه صاحبه علي بن محمد التمقروتي الدرعي، في بداية القرن الحادي عشر الهجري، نهاية القرن السادس عشر الميلادي، عقب عودته من رحلته إلى المشرق والتي جاءت نتيجة تكليفه بمهمة سياسية تمثلت في سفارة دبلوماسية من قبل السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي إلى السلطان العثماني مراد الثالث، وقد امتدت هذه الرحلة بين سنتي 797هـ و799هـ / 1589م و1591م، وانتقلت عبر المحطات البحرية الممتدة من تطوان وحتى طرابلس ثم القسطنطينية، ثم العودة عبر نفس المسار ومنه حتى فاس.

وتمثل هاته الرحلة مصدراً مهماً على صعيد الأخبار التاريخية، سواء ما تعلق منها بالأحداث السياسية أو الأوضاع الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في حواضر شمال إفريقيا وعاصمة الدولة العثمانية، وسيجد فيها الباحث التاريخي في وقائع ذلك العهد، ما يعينه على سد كثير من الثغرات، خاصة في مجال العلاقات المغربية العثمانية والأوضاع العامة في حواضر المغرب العثماني البحرية، ولهذا فهي مصدر مهم وذو قيمة عالية.

4. المراجع:

- 1- علي بن محمد التمرقوتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 2002، ص: 05، ص: 22.
- 2- يستخدم المغاربة رسم تمكروت أو تمجروت للدلالة على القاف اليابسة أو المعقودة، وسنستخدم حرف القاف مباشرة، لأنه الأقرب إلى مخرج (القاف) المقصودة في لفظ "تمكروت".
- 3- محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق: هاشم العلوي القاسمي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص: 23.
- 4- محمد المكي بن موسى بن ناصر الدرعي، مؤرخ مغربي من منطقة درعة، له مصنف "الدرر المرصعة بأخبار درعة"، توفي سنة 1180هـ/1766م. أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ط: 15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ج: 07، ص: 109.
- 5- محمد المكي الدرعي، الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة، تحقيق: محمد الحبيب نوح، المؤسسة الناصرية للثقافة والعلم، سلا، 2014، ص: 217.
- 6- محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، دار المغرب، الرباط، 1977م، ج: 01، ص: 49.
- 7- درعة، إحدى أقاليم المغرب الجنوبية، تقع على ضفاف وادي درعة، جنوب ناحية هكسورة وتتبع اليوم جهة درعة تافيلالت. أنظر: حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، محمد الأخضر، ط: 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج: 01، ص: 171.
- 8- عبد العزيز بن خليفة القسنطيني، فقيه ومتصوف قسنطيني الأصل تونسي السكن والقبر، له بعض الرسائل في التصوف، أنظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ج: 04، ص: 85.
- 9- ابن عسكر الشفشاوني، دوحه الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، دار المغرب، الرباط، 1977، ص: 93.
- 10- التمرقوتي، مصدر سابق، ص: 05.
- 11- عبد الله الغالب (1527-1574م)، رابع السلاطين السعديين، حكم بين سنوات 1557 و1574م، أنظر: أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ج: 05، ص: 38-53.
- 12- سليم الثاني، ابن سليمان القانوني (1524-1574م)، السلطان العثماني الحادي عشر، حكم بين سنوات 1566 و1574م، أنظر: إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1988، ص: 97-102.
- 13- أحمد المنصور الذهبي، (1549-1603م)، خامس السلاطين السعديين وأعظم حكام الدولة السعدية، حكم بين سنوات 1578 و1603م، أنظر: السلاوي، مرجع سابق، ج: 05، ص: 89-186.
- 14- محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة، فضالة، 1978، ج: 2، ص: 547، 548.
- 15- الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، معلمة المغرب، مطابع سلا، سلا، 1989، ص: 2191.
- 16- حجي، مرجع سابق.
- 17- الجمعية المغربية، مرجع سابق.
- 18- أبو الفضل عياض بن موسى اليعقوبي السبتي، (1083-1149م) القاضي الشهير وإمام وقته في الحديث والفقه والنحو واللغة وتاريخ العرب والأنساب، ترك مصنفات عظيمة مثل: "مشارك الأنوار" ومثل "ترتيب المدارك وتنوير المسالك لمعرفة مذهب مالك"، ولد بسبته وتوفي بمراكش، أنظر: شمس الدين بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1970، ج: 03، ص: 483-485.
- 19- الزركلي، مرجع سابق، ج: 05، ص: 12. / محمد بن أحمد الحضيكي، طبقات الحضيكي، تحقيق: أحمد بومزقو، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2006، ص: 488. / ابن الطيب القادري، التقاط الدرر، مصدر سابق، ص: 23.
- 20- عبد القادر زمامة، "مع أبي الحسن التمرقوتي في رحلته إلى القسطنطينية"، مجلة المناهل، العدد: 25، وزارة الشؤون الثقافية بالمغرب، (ديسمبر 1982)، ص: 231.
- 21- محمد الشيخ، (1490-1557م)، ثالث السلاطين السعديين، والمؤسس الفعلي للدولة السعدية، حكم بين سنوات 1540 و1557م، أنظر: السلاوي، مرجع سابق، ج: 05، ص: 19-32.
- 22- محمد الصغير الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق: هوداس، دار إيرنست لورو، باريس، 1888، ص: 42-44.

- 23- محمد المتوكل ابن الغالب، خامس السلاطين السعديين، حكم بين سنتي 1574 و1576م، أطاح به عمه عبد الملك فاستنجد بالبرتغاليين وقتل في معركة وادي المخازن. أنظر: السلاوي، مرجع سابق، ج: 05، ص- ص: 57-59.
- 24- عبد الملك السعدي، سادس السلاطين السعديين، حكم بين سنوات 1576 و1578م، أنظر: السلاوي، مرجع سابق، ج: 05، ص- ص: 59-88.
- 25- معركة إسلامية كبيرة، جرت بين الجيش السعدي المغربي والجيش البرتغالي، سنة 1578م، سميت بمعركة الملوك الثلاثة، لوفاة السلطانين المغربيين؛ عبد الملك والمتوكل، فيها، والملك البرتغالي سيباستيان. أنظر: السلاوي، مرجع سابق، ج: 05، ص: 69.
- 26- عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ط: 03، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2005، ص- ص: 86-99. / مجهول، الدولة السعدية التكميدارية، تحقيق: عبد الرحيم بن حادة، دار تينمل للطباعة والنشر، 1994، ص- ص: 38-52.
- 27- حسن فزيانو أو حسن بندقلي، أحد بيلربايات الجزائر، تولى إمارتها بين سنوات 1577 و1583م. أنظر: عزيز سامح ألتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989، ص، ص: 252، 253.
- 28- عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تحقيق: عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، 1972م، مصدر سابق، ص- ص: 41-42.
- 29- مراد الثالث بن سليم الثاني (1544-1595م)، السلطان العثماني الثاني عشر، حكم بين سنتي 1574 و1595م. أنظر: حليم، مرجع سابق، ص- ص: 103-107.
- 30- أبو الطيب البسكري، ذكر الفشتالي أنه مفتي الجزائر، الشيخ العالم الخطيب الشهير، ونقل صاحب شجرة النور الزكية أنه تتلمذ على يد الشيخ الوزان القسنطيني. أنظر: محمد بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في معرفة طبقات المالكية، تحقيق: عبد المجيد خيالي، در الكتب العلمية، بيروت، 2002، ج: 01، ص: 410. / الفشتالي، مصدر سابق، ص: 50.
- 31- الإفرائي، مصدر سابق، ص، ص: 85، 86. / الفشتالي، مصدر سابق، ص، ص: 50، 51.
- 32- القلج علي أو العليج علي (1519-1587م)، أحد أعظم بيلربايات الجزائر، تولى إمارة الجزائر بين سنتي 1568 و1587م. أنظر: ألتر، مرجع سابق، ص- ص: 223-234.
- 33- الأول أحد قواد السلطان المنصور والثاني أحد كتّابه. أنظر: الإفرائي، مرجع سابق، ص: 86.
- 34- الإفرائي، مصدر سابق، ص: 86. / الفشتالي، مصدر سابق، ص- ص: 62-64. / السلاوي، مرجع سابق، ج: 05، ص، ص: 95، 96.
- 35- محمد أمين بن فضل الله المحجي الحموي الدمشقي، (1651-1699م)، الفقيه الحنفي والأديب والمؤرخ، أحد أشهر أعلام الشام في العهد العثماني. أنظر: محمد خليل المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ط: 03، دار ابن حزم، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1988، ج: 04، ص: 86.
- 36- محمد الأمين المحجي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المطبعة الوهيبية، القاهرة، 1868، ص، ص: 222، 223.
- 37- عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مطابع فضالة، فضالة، 1986، مجلد: 08، ص- ص: 56-58. / عمار بن خروف، العلاقات بين الجزائر والمغرب 1517-1659م، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1983، ص، ص: 236، 237.
- 38- كاتب المنصور، وصفه التمعروتي بأنه الفقيه العالم والكاتب اللبيب، أنظر التمعروتي، مصدر سابق، ص: 150.
- 39- المصدر نفسه، ص: 07.
- 40- زمامة، مرجع سابق، ص: 231. / بن خروف، مرجع سابق، ص: 237.
- 41- الإفرائي، مصدر سابق، ص، ص: 86، 87. / الفشتالي، مصدر سابق، ص: 66.
- 42- التمعروتي، مصدر سابق، ص- ص: 135-137.
- 43- بن خروف، مرجع سابق، ص: 238.
- 44- التمعروتي، مصدر سابق، ص: 07.
- 45- الوزان، مصدر سابق، ج: 01، ص، ص: 324، 325.
- 46- التمعروتي، مصدر سابق، ص: 07.
- 47- المصدر نفسه، ص، ص: 07، 08.
- 48- نفسه، ص: 08.
- 49- حجي، مرجع سابق، ج: 01، ص: 26.
- 50- التمعروتي، مصدر سابق، ص، ص: 09، 11.
- 51- هنري دو كاستري (1850-1927م)، مستكشف فرنسي وأحد علماء ومؤرخي نظام الحماية الفرنسية بالمغرب. أنظر:

Bernard Rosenberg, "Henry de Castries concepteur d'un projet très ambitieux", Archives du Maroc, N°: 2, (2017), p: 33.

52- H. de Castries, En-nafhat el-miskiyya fi-s-sifarat et-tourkiya, Relation d'une ambassade marocaine en Turquie, 1589-1590, Paris, 1929, p: 04.

53- إجناتي يوليانوفيتش كراتشكوفسكي (1883-1951م)، أبرز المستشرقين والمهتمين بالدراسات العربية الروس. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط: 03، دار العلم للملايين، بيروت، 1993، ص: 486.

54- إغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963، ص، ص: 459، 460.

55- التمكنوتي، مصدر سابق، ص، ص: 08، 100.

56- خالد بن عيسى بن إبراهيم البلوي، الشهير بأبي البقاء البلوي، (680-780هـ/1281-1378م)، قاضي أندلسي، دون رحلته للحج في مصنفه "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق". أنظر: الزركلي، مصدر سابق، ج: 02، ص: 297.

57- أحمد بن محمد بن عبد ربه، (1456-1534م) شاعر وحافظ وراوي أندلسي، صاحب مصنف "العقد الفريد". أنظر: ابن خلكان، مصدر سابق، ج: 01، ص: 110.

58- محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، الشهير بابن بطوطة، (703-779هـ/1304-1377م)، رحالة ومؤرخ، صاحب الرحلة الشهيرة. أنظر: الزركلي، مرجع سابق، ج: 06، ص، ص: 235، 236.

59- أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي المتوفى سنة (487هـ/1094م)، مؤرخ وجغرافي صاحب مصنف "المسالك والممالك". أنظر: الزركلي، مرجع سابق، ج: 04، ص: 98.

60- التمكنوتي، مصدر سابق، ص: 09.

61- التنازي، مرجع سابق، ص: 59/ بن خروف، مرجع سابق، ص: 237.

62- التمكنوتي، مصدر سابق، ص: 26.

63- زمامة، مرجع سابق، ص، ص: 224، 225/ الإفرائي، مصدر سابق، ص: 99.

64- التمكنوتي، مصدر سابق، ص: 137.

65- مامي أرناوط أو أرناؤوط، أحد الرئاس المهتدين، أي أنه كان مسيحياً واعتنق الإسلام بعد أسرته، وقد رباه القلج علي، وأصبح له دور في البحرية الجزائرية في نهاية القرن السادس عشر، توفي سنة 1600م. أنظر: ألتر، مرجع سابق، ص، ص: 228، 304.

66- التمكنوتي، مصدر سابق، ص، ص: 27، 65، 129.

67- كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ص: 460.

68- التمكنوتي، مصدر سابق، ص- ص: 74-76.

69- كوستانيزو برنيا، طرابلس من 1510م إلى 1850م، ترجمة: خليفة محمد التليسي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، 1985، ص، 81، 82.

70- التمكنوتي، مصدر سابق، ص، ص: 42، 75، 76.

71- كراتشكوفسكي، مرجع سابق.

72- التمكنوتي، مصدر سابق، ص- ص: 29-39.

73- المصدر نفسه، ص- ص: 41-80.

74- نفسه، ص- ص: 86-91.

75- نفسه، ص: 91-97.

76- نفسه، ص: 129.

77- مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص- ص: 45-62.

78- كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ص- ص: 459-461.

79- التمكنوتي، مصدر سابق، ص، ص: 38، 128، 129.

80- المصدر نفسه، ص- ص: 41-77.

81- نفسه، ص- ص: 91-94.

82- نفسه، ص، ص: 98، 99.

- 83- كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ص: 460/ زمامة، مرجع سابق، ص: 236/ التمرقوتي، مصدر سابق، ص: 151.
- 84- أبو مدين شعيب الأندلسي (509- 594هـ/ 1115- 1198م) فقيه ومتصوف وشاعر أندلسي، شيخ الإسلام في عصره، سكن بجاية ودفن بتلمسان. أنظر: أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: عادل نويهض، ط: 02، دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1979، ص: 22.
- 85- أبو يوسف يعقوب المنصور (555- 595هـ/ 1160- 1199م)، ثالث السلاطين الموحدين، حكم بين سنتي 1184 و1199م. أنظر: ابن خلكان، مصدر سابق، ج: 07، ص: 03.
- 86- عبد الحق الأزدي الإشبيلي المعروف بابن الخراط (510- 581هـ/ 1116- 1185م)، فقيه أندلسي له تصانيف ومؤلفات، سكن بجاية ودفن بها. أنظر: الغبريني، مصدر سابق، ص: 41.
- 87- أبو عبد الملك مروان بن القطان البوني (439هـ/ 1074م)، فقيه ومفسر وحافظ، أندلسي الأصل، عاش ودفن بعنابة. أنظر: نويهض، مرجع سابق، ص: 52.
- 88- محمد بن محمد بن عرفة، المتوفى سنة 803هـ/ 1400م، أحد علماء وأعلام تونس، أنظر: أحمد بابا التنيكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتاب، طرابلس، 2000، ص: 461- 473.
- 89- ابن عبد السلام التونسي، المتوفى سنة 749هـ/ 1348م، قاضي وفقه مالكي. أنظر: أحمد بن يحيى الونشريسي، وفيات الونشريسي، تحقيق: محمد بن يوسف القاضي، شركة نوايع الفكر، القاهرة، د س، ص: 43.
- 90- أبو العزائم ماضي، المتوفى سنة 718هـ/ 1318م، صاحب الشيخ أبي الحسن الشاذلي. أنظر: الونشريسي، مصدر سابق، ص: 17.
- 91- فتح الله ابن يوسف العجيجي الخرساني، نزل بتونس وصار أحد أشهر علمائها في القرن التاسع، توفي سنة 848هـ/ 1444م. أنظر: شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، 1992، ج: 06، ص: 167.
- 92- عمر القلشاني، القاضي والفقيه والمحدث الباجي الأصل، توفي سنة 848هـ/ 1444م. أنظر: السخاوي، مصدر سابق، ج: 06، ص: 137.
- 93- محرز بن خلف بن رزين البكري، المتوفى سنة 413هـ/ 1022م، من أشهر زهاد تونس، التفت الناس حوله للتبرك به وسماع كلامه. أنظر: الزركلي، مصدر سابق، ج: 05، ص: 284.
- 94- التمرقوتي، مصدر سابق، ص: 31- 64.
- 95- علي بن محمد الربيعي المعروف باللخمي، فقيه مالكي له معرفة بالأدب والحديث، أصله من القيروان، وتوفي ودفن بصفاقس سنة 482هـ/ 1089م. أنظر: الزركلي، مصدر سابق، ج: 04، ص: 328.
- 96- التمرقوتي، مصدر سابق، ص: 65- 70.
- 97- أبو عبد الله المكي فقيه وعالم، أصله من صفاقس وانتقل إلى طرابلس. أنظر: التمرقوتي، مصدر سابق، ص: 77.
- 98- المصدر نفسه، ص: 77، 78.
- 99- نفسه، ص: 91- 101.
- 100- أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن بونس الدويني المصري، الشهير بابن الحاجب، فقيه مالكي ونحوي وأصولي ومقرئ، له مصنفات شهيرة مثل: "مختصر ابن الحاجب" في الفقه المالكي و"كافية ذوي الأرب في معرفة كلام العرب"، توفي سنة 646هـ/ 1249م. أنظر: ابن خلكان، مصدر سابق، ج: 03، ص: 248- 250.
- 101- التمرقوتي، مصدر سابق، ص: 103.
- 102- عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، من كبار المفسرين وأعيان وعلماء الجزائر، درس بالجزائر وتونس ومصر، وله مصنفات كثيرة منها "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، توفي سنة 875هـ/ 1470م. أنظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ط: 02، مؤسسة نويهض للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1980، ص: 90.
- 103- أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي، فقيه مالكي، أصله من منطقة زواوة وهو من كبار علماء زمانه بمدينة الجزائر، من مصنفاته: "كفاية المريد"، توفي سنة 884هـ/ 1479م. أنظر: نويهض، مرجع سابق، ص: 96، 97.
- 104- التمرقوتي، مصدر سابق، ص: 129.
- 105- المصدر نفسه، ص: 156، 157.
- 106- de Castries, op-cit, p: 01.
- 107- التمرقوتي، مصدر سابق، ص: 90- 102.
- 108- المصدر نفسه، ص: 94- 101.

109- نفسه، ص: 25.

110- نفسه، ص- ص: 142-148.

111- الإفرائي، مصدر سابق، ص، ص: 120، 146.